فمن منظور تواصل هذا الخيط النفسى يتراءى لنا الإنسان هو الإنسان أمام قوي الكون وما وراء الطبيعة ، على عكس ما يخضعه لعلمه أو خبرته ، سواء أكان بدويا أو حضاريا ، جاهليا أو غير جاهلى ، إذ أن ثمة رابطة تشدُّه - بالتأكيد - إلى وجوده البشري لايمكن إنكارها مع تغاير العصور ، بل تظل على درجة بارزة من الثبات والتكرار تسمح بتبيُّن طبيعة هذا التواصل ، وتدعو إلى ضرورة تسجيله والتسليم به ، والدعوة إلى تعزيزه واحترامه .

ومن منطلق تلك الرؤى الإنسانية المتواصلة يمكن الاستدراك على الموقف حتى لانقطع بدور مرحلة مدرسة الإحياء ، وكأنها نهاية الطريق مع تراثنا الأدبى ، وكأن ما بعدها يظل نبتا شيطانيا فى أرض يباب لا حياة فيها ، أو يظل منبتّ الصلة - وهذا مستحيل - بالمادة القديمة التى أبدعتها قرائح الشعراء عبر الأجيال المتعددة خاصة منهم القمم الكبار ، أو يظل - على أسوأ الفروض - بمثابة تجاهل لحركة الشعر عبر هذا الاتجاه ، وهوما يعد ضربا من التخاذل الذى قد يشين كياننا الثقافى إزاء شريحة منه يجب درسها وتقويمها ، ومحاولة تحليل السالب منها قبل الموجب ، دون أن تضيع فى غياهب التناسي ، أو التغافل ، بما قد يجنى علي كم فكري له قيمته ووزنه ، وله كيانه الذي يجب الاعتداد به والحرص عليه ، وتحديد موقعه من مساقات الموروث والمستحدث فى آن واحد .

فإن سلمنا بصحة هذه الأفكار أمكن على سبيل المثال - والمثال هنا عشوائى - أن نلمح تشابها واضحا بين منطق شاعر كالسياب فى أنشودة مطره ، وتصوير أحزان وطنه تحت سطوة المحتل الأجنبى وبين منطقة شعر الطبيعة التى استوقفت الشاعر القديم فتجادل معها وتحاور من خلالها ، وشكا إليها همو مه وبثها أشجانه ، وطرح من خلال مقوماتها تجاربه ، وظهر تفاعله الموجب معها جدلا بين تأثير وتأثر[1] ، فستظل الطبيعة هي الطبيعة ، والإنسان أمامها هو الإنسان ، والتجارب البشرية هي التجارب ، والوطن هو الوطن ، على غرار ما رأيناه عند شوقى وحافظ وما يمتد إلى ملامح المواطنة وشعر الحنين في تراثنا القديم - وما أكثره- علي غرار وطن ابن الرومي الذى آلى على نفسه ألا يقبل بيعه إياه ، وألا يري غيره الدهر مالكا ، وإن اختلفت صيغ التعبير ، أو تغايرت أشكاله ، أو زادت لغة التصوير عمقا بحكم المعاصرة والرغبة فى التجديد والإضافة ، وإن كان هذا لا يسقط - بحال - منطق التشابه الذى يذكرنا دوما بحديث المعارضات وعالمها المتميز .

(١) على نحو ما ظهر فى شعر الصنوبرى وأبى تمام وغيرهما ومن قبلهما يأتى درس الطبيعة فى الشعر الجاهلى (انظر دراسة الدكتور نورى القيسى)